# الصورة والخطاب الاستعماري:
# قراءة في رسومات كايتون وودفيل

كريم بجيت

## تقديم

تحمل رسومات ريتشارد كايتون وودفيل (Richard Caton Woodville) (1927-1856) التي أنجزها خلال رحلته إلى المغرب في سنة 1887 بين ثناياها ملامح معبرة عن ما كان سائدا من صور في كتب الرحالة الأوروبيين، حول الأوضاع السياسية والاجتماعية للمغرب. إذ أن تغلغل النفوذ الأوروبي في منطقة شمال إفريقيا وسقوط أقطارها تباعا تحت الاحتلال الأوروبي المباشر لم يسمح فقط بإبراز التباين الكبير أنذاك بين بلدان شمال البحر الأبيض المتوسط وجنوبه، فيما يتصل بالقوة العسكرية والاستقرار السياسي والرخاء الاجتماعي والحريات الفردية، ولكن مكن أيضا الكتاب الأوروبين من إعادة فهم وتحديد طبيعة العلاقات التاريخية بين ضفتي المتوسط، والتي تقوم من منظورهم على مبدأ التفوق الطبيعي، وعلى تقويم الخصوصية الحضارية لدول جنوب حوض المتوسط على أسس تتنافى مع المفاهيم التنويرية التي قامت عليها الحضارة الأوروبية الحديثة. ومن ذلك أن النسق الإسطوغرافي الأوروبي خلال القرن التاسع عشر وتماهيه الكبير مع السياسات الإمبريالية، سعى إلى تصوير دول جنوب المتوسط على أنها بقايا أنظمة فيودالية، تتحكم فيها النزعات القبلية والعرقية، ويسود فيها التعصب الديني بدل المساواة بين الأعراق والأديان، وتنتفي فيها حقوق مواطنة الفرد، في مقابل تضخم سلطة الحاكم الأوحد، ولا تتقيد في سياساتها بقوانين أومبادئ.

وبغض النظر عن صحة هذه التصورات من عدمها، فإن من يحلل هذه المقولات لا يجد فيها مجرد وصف لمظاهر الانحطاط والتخلف الحاصل في بلدان شمال إفريقيا وغيرها من المستعمرات، ولكن يلمح كذلك نزوعا شديدا لربط هذا التخلف

بالمقومات الثقافية والدينية والعرقية لهذه الأقطار. ومن تم تُصدر أحكاما جاهزة قطعية تتحدث عن كون الأسباب الكامنة وراء تخلف أحوال سكان شمال إفريقيا، تتمثل في طبيعة دينهم المتزمت، وميلهم الطبيعي للفوضى والعنف، وعدم قدرتهم على التعايش مع أجناس أخرى أو الانفتاح على ثقافات مغايرة. ويستطيع القارئ لكتب الرحالة الأوروبيين تلمس هذه الأحكام القطعية من خلال النماذج المقدمة عن طبيعة المجتمع قيد المعاينة، إذ أن مشاهد الفقر والمرض في القرى والمدن، واستعراض مظاهر التخلف الاجتماعي والاقتصادي، وغياب البنيات التحتية والمسالك الطرقية ووسائل النقل الحديثة، غالبا ما يرافقة تأويلات ممعنة في التطرف حول عجز الثقافات الشرقية عموما عن مسايرة الركب الحضاري الحديث، وحول ضرورة التدخل الأوروبي لإحداث التغيير المطلوب.

ولا تشد رسومات كايتون وودفيل المستوحاة من المشاهد التي مرت أمامه خلال مقامه في طنجة، وأثناء رحلته من مدينة الجديدة إلى مراكش عن هذا المنحى التأويلي ذي الحمولة الأيديولوجية، والمتشبع بمبدأ تفوق الحضارة الغربية على غيرها من الحضارات. فمسار وودفيل الفني ارتبط منذ البداية بخدمة الإمبراطورية البريطانية التي تنقل بين مستعمراتها، وارتبط بجنرالاتها وساساتها. فمنذ تخرجه من أكاديمية الفنون الملكية بدوسلدورف بألمانيا سنة 1877، وضع وودفيل ريشته في خدمة التاج البريطاني، حيث عمل على تغطية نهاية الحرب الروسية التركية في 1878 من خلال رسوماته ولوحاته المؤرخة للمشاهد الحربية. وكان تعرفه على القنصل البريطاني وليام كيربي غرين (William Kirby Green) بشمال ألبانيا بداية علاقة ستجمعهما لاحقا في زيارة إلى المغرب. ومما يذكره وودفيل في سيرته الذاتية أن إقامته بإقليم ألبانيا شكلت تجربة مبكرة تعرف فيها على الثقافة الإسلامية، وعلى طقوس وعادات وأزياء المسلمين.

شارك وودفيل سنة 1882 في الحملة العسكرية البريطانية ضد مصر في أعقاب ثورة أحمد عرابي. وكان استقراره بمصر فرصة أخرى للتعرف عن كثب على خصوصية وتنوع الحضارة الإسلامية، وعلى دور بريطانيا في إعادة صياغة الوضع السياسي

المصري وفق مصالحها. وقد لجأت إليه المؤسسة العسكرية في مصر لتصميم الزي العسكري لقواتها بعد أن تقرر تشكيلها من جديد. وفي السنوات الموالية ازدادت شهرة وودفيل، وأصبح من الفنانين المقربين، من البلاط ورسام البورتريه المفضل لدى العائلة الملكية. وكانت هذه العلاقة الشخصية سببا مباشرا في تعيينه في مهام رسمية منها مرافقته للبعثة الرسمية لصديقه وليام غرين إلى المغرب، وكذلك زيارته للهند رفقة الأمير ألبرت فيكتور (Albert Victor) في نهاية سنة 1889. في سيرته الذاتية "**ذكريات اعتباطية**"، يصرح وودفيل بأن "لا أحد يستطيع استيعاب مدى قوة انجلترا حتى يزور بلاد الهند. فجنودنا الهنود الرائعون هم مثار غيرة الأمم، طرقات الإمبراطورية لامثيل لها وبناياتها رائعة"[1]. ورغم جذوره المتنوعة من أب أمريكي وأم ذات أصول ألمانية روسية، فإن نشأة وودفيل في إنجلترا وارتباطه بالمؤسسة العسكرية البريطانية خلال عقود من مساره الفني شكلا لديه إحساسا عميقا بقوة وعظمة الإمبراطورية البريطانية مثله في ذلك مثل العديد من كتاب وفناني جيله. وقد جاءت أعماله معبرة عن مناحي كثيرة من هذه السلطة العتيدة، كما أنها أفرزت صورا نمطية للمستعمرات وللشعوب المتعددة الأعراق الواقعة تحت حكم الإمبراطورية البريطانية، تركز على كل ماهو طريف وغرائبي من وجهة نظر المتلقي الإنجليزي. ونجد هذا النسق يغلب أيضا على فصول سيرته الذاتية التي اختار أن تكون سردا مكثفا لوقائع متناثرة من حياته تطبعها المغامرة والإثارة خصوصا فيما يتعلق برحلاته إلى المشرق. ولعل مقياس النجاح الذي حققه وودفيل في مساره الفني الطويل هو حصوله على عدة ميداليات تقديرية منها ميدالية الصليب الأعظم للصليب الأحمر الإسباني، وميدالية التاج الملكي الإسباني، فضلا عن ميداليات من الرئيس الفرنسي على لوحات تؤرخ لحروب فترة نابليون، وأخرى من السلطان العثماني على الحرب التركية الروسية.

إن استحضار هذه الخلفية الثقافية والفنية لوودفيل مفيد في استقصاء المعاني والرموز التي تزخر بها رسوماته حول المغرب. وهي ليست مجرد صور وانطباعات

1 - Richard Catton Woodville, *Random Recollections* (London: E. Nash, 1914), p. 59.

شخصية مستقلة عن الإطار السياسي التي جاءت فيه الزيارة إلى المغرب، ولاهي متحررة من نسق السلطة الإمبريالية التي شكلت باستمرار رافده ومرتكزه الأيديولوجي.

### خلفيات الزيارة

في أكتوبر 1886، إثر تعيين القنصل البريطاني وليام كيربي غرين خلفا لجون درامندهاي (John Drummond Hay) الذي أمضى ما ينيف عن أربعة عقود في منصبه ممثلا للدولة البريطانية في المغرب، استُدعي وودفيل لمرافقة القنصل الجديد في مهمة رسمية إلى بلاط السلطان الحسن الأول. وتلزم الإشارة إلى أن الظرفية التي جاءت فيها هذه الزيارة اتسمت بالدقة والحساسية الشديدة بالنسبة للمغرب. فالربع الأخير من القرن التاسع عشر شهد تزايد أطماع الدول الأوروبية وخاصة فرنسا وإسبانيا من أجل السيطرة على المغرب، والتمكن من مصادر ثرواته. فبعد هزيمتي إيسلي (1844) وتطوان (1860) التي كان من آثارهما فشل الدولة المركزية في التحكم في الأطراف، واضطرارها لتسديد فاتورة انسحاب القوات المحتلة الإسبانية من تطوان، وهو ما انعكس سلبا على الاقتصاد برمته، أصبح المغرب قضية أوروبية بامتياز وجزءا من الصراع الإمبريالي القائم بين بريطانيا وفرنسا منذ عقود. ومع أن المغرب كدولة وأمة استطاع الحفاظ على الاستقلال من هيمنة المد البرتغالي والإسباني في القرنين السادس والسابع عشر، رغم احتلال بعض ثغوره على الواجهتين المتوسطية والأطلنتية والتي قام السلطان المولى إسماعيل باسترداد معظمها، إلا أن سلطة الدولة على الأطراف اتسمت بالتراجع خصوصا خلال فترة الأزمات. وفي الوقت الذي امتدت فيه سيطرة الإمبراطورية العثمانية خلال القرن السادس عشر لتشمل المشرق وأقطار المغرب العربي، فإن الدولة المغربية أبدت تماسكا كبيرا حيال هذا التوسع بفضل الدينامية الداخلية لمكونات المجتمع المغربي، والتي أفرزت دوما نظما سياسية محلية خالصة. لكن عوامل هذا التماسك إزاء التهديدات الخارجية غالبا ما كانت تنتفي حين تفتقد السلطة المركزية إلى

قوتها ومشروعيتها، كما هو الحال بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي في 1603 والمولى إسماعيل في 1727[2].

بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر بداية من 1830، تراجع دور السلطة المركزية بالمغرب تدريجيا في التحكم في مقاليد الأمور وتزايد نفوذ الدول الأجنبية عبر تمثيلياتها الديبلوماسية بطنجة. وأهم مظهر لهذا التأثير المتعاظم للقناصلة الأوروبيين هو الحماية التي كان يوفرها القناصلة لعدد من الرعايا المغاربة، والتي بفعلها أصبحوا في منأى عن المساءلة والمحاسبة. وغدا انتشار هذا الامتياز، الذي خول في الأصل لعدد محدود من المغاربة المرتبطين مهنيا بالقنصليات الأجنبية، معضلة كبرى وتحديا سافرا لسيادة المخزن على رعاياه[3]. ولم يفلح مؤتمر مدريد في سنة 1880 في وضع قيود لهذه الظاهرة، بل إنها استفحلت وأصبحت وسيلة لابتزاز الدولة المغربية لتقديم المزيد من التنازلات كلما تعرض أحد المحميين لاعتداء.

وتعتبر فترة حكم السلطان الحسن الأول (1873-1894) مرحلة حاسمة في مسار المغرب السياسي، تميزت بإرادة قوية للتحديث والإصلاح ومجابهة التحديات الخارجية عبر تقوية سيادة الدولة على مجموع التراب المغربي. وقد شهدت العلاقات المغربية البريطانية دفعة قوية خصوصا على المستوى العسكري. ففي سنة 1876 تم إرسال ما يزيد عن مائة جندي مغربي إلى جبل طارق للتدريب على الطرق الحديثة في القتال[4]. ولم يقتصر الأمر على التدريب العسكري، بل امتد ليشمل مجالات البحرية وبناء السفن وكذا الطب والعلوم الحديثة[5]. وفي الشهور الموالية، تم التعاقد مع ملازم بريطاني مقيم بجبل طارق للإشراف على خلق جيش نظامي حديث بالمغرب وهو الضابط ماكلين (Maclean) الذي أصبح فيما بعد يحمل لقب قائد.

---

2 - راجع كتاب محمد جادور، مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، 2011.

3 - راجع مؤلف محمد كنبيب، المحميون، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2011.

4 - P. G. Rogers, *A History of Anglo-Moroccan Relations to 1900* (London: Foreign and Commonwealth Office, 1970), p. 186

5 - Rogers, *A History*, p. 190.

وبالرغم من هذا التعاون الوثيق بين المغرب وبريطانيا، فإن إشكالية الحماية وتبعاتها السلبية ظلت مصدرا من مصادر التوتر بين البلدين[6]. كما أن محاولة بعض التجار الإنجليز إقامة شركة على رأس جوبي قرب طرفاية دون ترخيص من السلطات المغربية، زاد من حدة هذا التوتر. ففي نهاية سنة 1882، قام السلطان الحسن الأول بحملة إلى منطقة سوس وبعث تجريدة من جيشه لاستقصاء أمر هذه الشركة. وفي الأعوام التالية ورغم معارضة السلطات المغربية، واصلت الشركة فرض الأمر الواقع من خلال بناء قلعة صغيرة ومخازن للبضائع، مما حذى بالسلطان إلى إرسال تجريدة عسكرية قامت بهدم المخازن المذكورة ومنع القبائل المجاورة من التعامل مع هذه الشركة. وكان من تبعات الحصار الذي فرضته السلطات المغربية على الشركة مقتل أحد مسيريها وجرح اثنين من رفقاءه في سنة 1888[8]. وقد سارع القنصل البريطاني غرين إلى المطالبة بمعاقبة المسؤولين عن الحادث وتعويض الضحايا. وفتح هذا الحادث جدالا بين الدولتين البريطانية والمغربية دام سنوات، وانتهى بالتوصل إلى إقتناء الدولة المغربية للمباني التابعة للشركة البريطانية، وفرض السيادة على رأس جوبي مقابل مبلغ خمسين ألف جنيه إسترليني كتعويض للشركة المذكورة[9]. شكلت هذه الحوادث جزءا من الانشغالات المستمرة للسلطات المغربية، ومظهرا من مظاهر الأزمة الداخلية المتفاقمة، والتي زادت الضغوط الأوروبية في تسريع وتيرتها. وتندرج بعثة غرين في هذا السياق المتحول، رغم أن مناسبة اللقاء بالسلطان الحسن الأول كانت لتقديم أوراق الاعتماد كممثل لبريطانيا خلفا لجون درامندهاي، وفتح صفحة جديدة في العلاقات المغربية البريطانية.

---

6 - Rogers, *A History*, pp. 188-90.

7 – تفاصيل هذا النزاع بين الشركة البريطانية والدولة المغربية أفرد لها دونالد ماكينزي صاحب المشروع فصولا (17-19) في كتابه، خليفة المغرب.

وهي تعكس نظرته الخاصة لتطور الأحداث من سنة 1875 إلى 1888. راجع:

Donald MacKenzie, *The Khalifate of the West* (London, 1911), pp. 163-204.

8 - Rogers, *A History*, p. 214.

9 – راجع وثيقة الاتفاق بين الوزير با أحمد بن موسى والقنصل البريطاني ساتو المنشورة في كتاب،

*The Khalifate of the West*, pp.201-203.

نشرت رسومات وودفيل حول المغرب في مجلة "The Illustrated London News" على مراحل بين غشت ودجنبر *1887* مرفوقة بوصف دقيق لبعثة السفير البريطاني وليام غرين إلى بلاط المولى الحسن الأول بمراكش كتبها مراسل صحيفة "London Times" وولتر هاريس *(Walter Harris)* في مستهل مشواره الصحفي بالمغرب، وأعاد نشرها في مؤلفه الأول عن السلطان الحسن الأول عامين بعد ذلك[10]. فقد أتاحت هذه الزيارة هاريس الفرصة للتعرف على الواقع السياسي والثقافي المغربي، وكانت بداية لتجربة طويلة من التعاطي الصحفي مع الأحداث والتطورات السياسية المحلية والدولية المرتبطة بالمغرب لمدة تزيد عن ثلاثة عقود أثمرت مؤلفات ومقالات كثيرة[11].

وفيما يخص وودفيل، فقد شكلت هذه الزيارة منعطفا مهما في مساره الفني، حيث أفرزت ثلاثة عشر لوحة تمثل رؤيته للمغرب كفضاء جغرافي وثقافي، تمزج بين التفاصيل اليومية التي عاينها أثناء السفر وبين مفاهيم أكثر رسوخا عن العادات والتقاليد وأنماط العيش عند المغاربة مع ما تستدعيه هذه المدلولات من أبعاد وإيحاءات سلبية. ومن خلال الوقائع التي وثقها كل من هاريس ووودفيل عن هذه الرحلة، يتضح الأثر البالغ الذي خلفه عندهما الاحتكاك المباشر مع شرائح من المجتمع المغربي، وكذا معاينة مظاهر غير مألوفة من الحياة اليومية للمغاربة. وقد مثلت فضاءات طنجة الحلقة الأولى في مسار استكشاف الخصوصية الثقافية والعرقية للمجتمع المغربي. فرغم أن المدينة شهدت منذ استردادها من الحكم الإنجليزي في بداية 1684، تواجدا متزايدا للرعايا والقناصلة الأوروبيين، فإنها مع ذلك حافظت على طابعها المغربي فيما يتعلق بالبنيان ونمط الحياة وأشكال التجارة. ونظرا لقربها من أوروبا، فإن زوارها من

10 - *The Land of an African Sultan, Travels in Morocco, 1887, 1888 and 1889* (London: S. Low, 1889),

11- راجع بالإضافة إلى المرجع السابق *Tafilet: The Narrative of a Journey of Exploration in the Atlas Mountains and the Oases of the North-West Sahara* (Edinburgh: W. Blackwood and Sons, 1895; *Morocco That Was*, London: W. Blackwood, 1921).

الرحالة كثيرا ما يشددون على التمايز الكبير بينها وبين مناطق مجاورة لها على الضفة الأخرى من البحر المتوسط كجبل طارق أو مدينة طريفة الإسبانية. ولا تخلو هذه المقارنات من إشارات صريحة لمدى التخلف والانحسار اللذين يطبعان أنماط الحياة المحلية المغربية.

ويتعمق هذا الإحساس كلما اتجه الرحالة جنوبا إلى حواضر المغرب التاريخية مثل فاس ومكناس ومراكش. وفي الحين الذي دامت إقامة وودفيل بفندق فرنسا في طنجة أسابيع، فإن حلوله بالجديدة بعد رحلة قصيرة عبر البحر شكل حدثا بالغ الأهمية لساكنة المدينة كما للزوار أنفسهم. وبغض النظر عن الإطار السياسي لبعثة السفير وحساسية المرحلة التاريخية بالنسبة للمغرب، فإن العدد الكبير نسبيا لطاقم البعثة الذي فاق أربعة عشر فردا، وتواجد ثلاثة سيدات هن حرم السفير وابنته وزوجة وودفيل أثار فضولا كبيرا لدى المغاربة من قاطني الجديدة والدواوير التي سار الموكب عبرها نحو مراكش. فخلال ستة أيام التي قطعها الوفد للوصول إلى مدينة النخيل رفقة المئات من العساكر المغاربة وأعداد غفيرة من الفضوليين والمتحلقين، كانت الفرصة موائية لوودفيل ورفقائه للتعرف على طرق العيش والتفكير وأنماط الأكل واللباس لنماذج متنوعة من الساكنة المغربية[12]. ومن بين الأمور التي استرعت انتباه وودفيل مسألة الضيافة التي تقدمها القبائل التي يحل عندها الموكب:

كلما توقفنا للمبيت، كان منظرا عجيبا، أن ترى موكبا من القرويين يصلون إلى معسكرنا حاملين المؤونة أو ضريبة الطعام، الأغنام والدجاج وشتى أنواع الخضر والبيض والشموع والشاي والسكر على شكل قوالب وكل أنواع الطعام الذي يمكن أن تتخيله بالإضافة إلى أحمال الكلأ المخصصة للدواب[13].

ومن منظور وودفيل، فإن الرحلة عبر سهول وكثبان دكالة في اتجاه مراكش والعودة منها إلى طنجة مرورا بمدن المغرب على الساحل الأطلنتي، شكلت تجربة

12 - Woodville, *Random Recollections*, p. 154.
13 - Woodville, *Random Recollections*, pp. 155-56.

استثنائية ألهمت مخيلته وتركت عنده انطباعا قويا لم يفتأ يعبر عنه في مناسبات متكررة. فزيارته للمغرب والتوغل في بواديه لم تكن فقط مغامرة فريدة لا يحضى بها إلا القليلون، بل مثلت لدى العديد من الكتاب سفرا في الزمان والمكان معا، وغوصا في عوالم وعصور أقرب إلى الخيال نتجت عنها لحظات كشف عميقة يصعب نسيانها. ولقد وجد وودفيل في الرسم وسيلة للتعبير عن مظاهر عديدة من هذا العالم الفريد في بنياته الثقافية والاجتماعية وفضاءاته الطبيعية والعمرانية. فسيرته الذاتية التي اختار لها عنوان **"ذكريات اعتباطية"** لا تمثل إلا نزرا قليلا من ذلك الزخم الكبير من الأحداث والحكايات التي مرت به خصوصا خلال مقامه في مراكش. وهي فضلا عن ذلك، وكما يشير العنوان، نتاج ذكريات بعيدة ترسبت في ذهنه ولا يمكن مقارنتها باللوحات من حيث دقة التفاصيل وراهنية المشاهد المصورة. إذ أن كل رسم من رسوماته يشكل نصا قويا وحدثا لافتا قد لا تسعف الكلمات في الإحاطة بمعانيه. فمن جهة تقدم هذه الرسومات لحظات وجدانية من مسار الرحلة مليئة بالأحداث تشد المتأمل فيها إلى عالم غير مألوف يوحي بالماضي الغابر أكثر مما يحيل على الحاضر، ومن جهة أخرى فإن لهذه الرسومات نسق استطرادي يحيل بعضها على البعض الآخر، ويشكل سلسلة من المشاهد المتشابكة. وباستحضار البعدين الزمني والجغرافي في قراءة هذه الرسومات، فإنه يمكن تحديد بعض الملامح البارزة في تمثل وودفيل للفضاء المغربي. فرسوماته تنتمي إلى المدرسة الواقعية وتتميز بتركيزها على التفاصيل الصغيرة وإيحاءاتها القوية، وهي بقدر ما تعكس مشاهد وأحداثا متناثرة تعبر كذلك عن أفكار ومفاهيم يطبعها التناسق والتناغم.

وقد يطرح السؤال هل من المفيد أو حتى الممكن أصلا استنتاج الرؤية الموجهة عند وودفيل لهذه الرسومات؟ ويمكن كذلك التشكيك في قدرة أي قراءة نقدية في سبر أغوار العلاقة التي تجمع بين الرسم والرسام أو بين النص ومؤلفه باعتبار لحظة الإبداع حدثا عابرا. وفي هذا السياق يمكن الاستدلال بمقولة رولان بارث (Roland Barthes) برمزية موت المؤلف عند قراءة النص وعن دور القارئ في بعث النص وشحنه بمعانيه

الخاصة مما يعني انفتاح النص على قراءات متعددة ومتباينة تغيب عنها سطوة المؤلف، وتنتفي ضرورة استقصاء النية أو القصد الكامنين وراء النص.

إن هذا التصور البنيوي للنص بقدر ما يشرع الباب واسعا لتفكيك الرموز وتحليل الدلالات التي تزخر بها رسومات وودفيل، فإنه يغيب الإطار التاريخي والبعد السياسي في عملية التأويل، وهي عناصر لها صلة بخلفية الرسام وارتباطاته السياسية. وهذا الجانب الخارج عن النص يدفعنا إلى استلهام منهج آخر في التحليل لا يقف عند البنية الداخلية للنص، ولا يعزله عن المحيط الذي نشأ فيه أو القوى المتحكمة فيه، بل يتعامل معه كنتاج لمكونات أكبر تتداخل فيها الثقافة والسياسة بالظروف الشخصية للمؤلف. ويعتبر هذا المنهج الذي طوره المفكر والناقد الفلسطيني إدوارد سعيد في مؤلفيه "الإستشراق" و"الثقافة والإمبريالية" انطلاقا من مفاهيم المعرفة والسلطة والخطاب عند ميشيل فوكو أقرب إلى ملامسة الأبعاد المتعددة لرسومات وودفيل وإبراز الجانب الخفي أو الملتبس في عملية التمثيل خصوصا فيما يتعلق بالآخر. فالصور التي تعرضها رسومات وودفيل حول المغرب لها دلالات ثقافية وسياسية تعكس رؤية الوافد المحملة بمرجعياته الأجنبية وقيمه المختلفة، كما تنطوي على أحكام قيمة تكشف أيضا الموقف الأيديولوجي والأخلاقي لوودفيل تجاه ما يرسمه.

## محاكاة السلطة

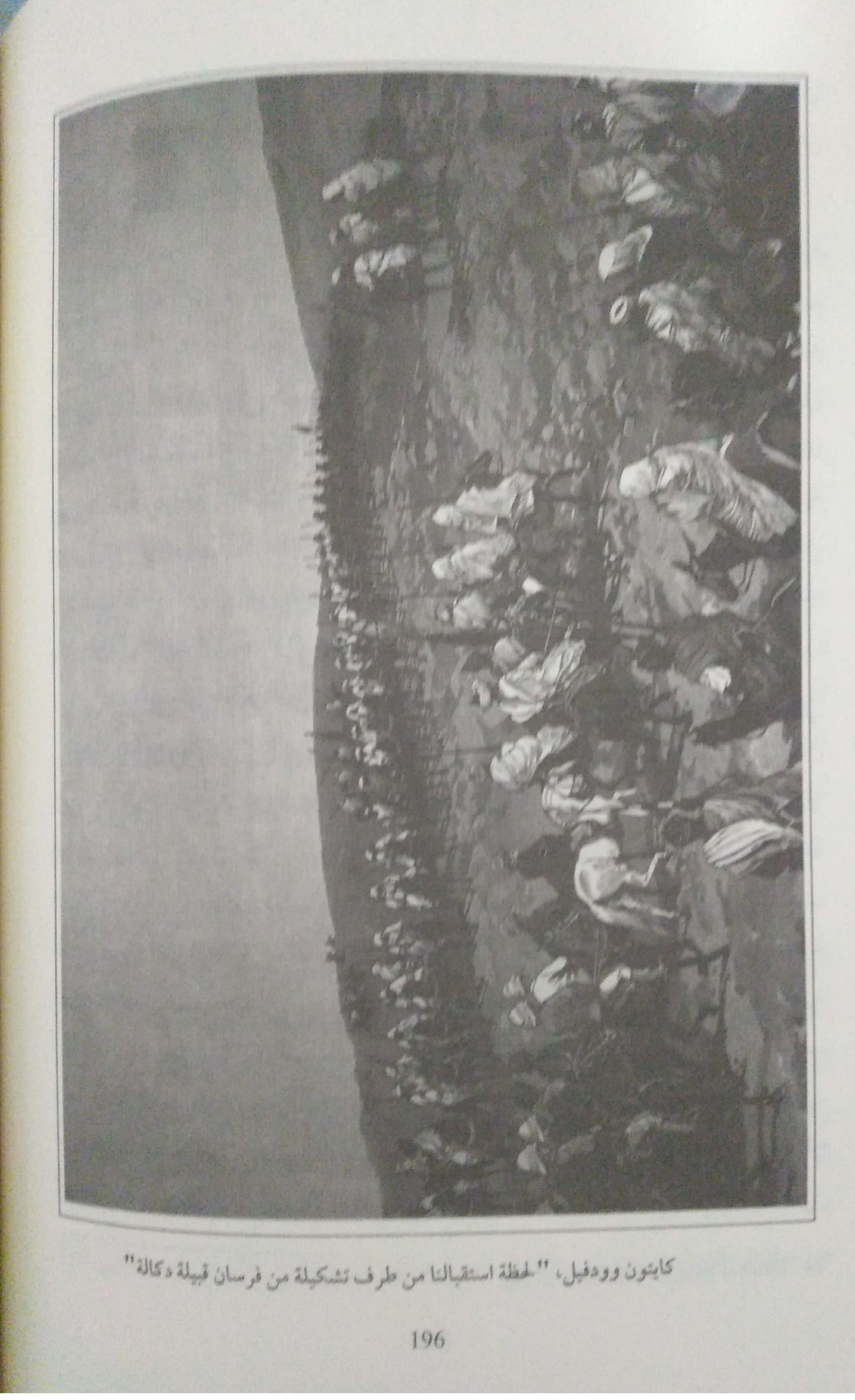
وبالتأمل في الرسم الأول الذي اختار له وودفيل عنوان "*لحظة استقبالنا من طرف تشكيلة من فرسان قبيلة دكالة*"، يمكن ملاحظة أشياء عدة أبرزها الفضاء الخلفي للصورة الخالي من أية علامة تشير إلى حياة مدنية، فليس هناك بنيان أو حقول أو حتى أشجار. وفي المقابل يهيمن على مساحة الصورة مشهد موكب البعثة البريطانية وسط حشد من الفرسان المغاربة ممتطين جيادهم، حاملين بنادقهم التقليدية وبعض الأعلام. وبالإضافة إلى الفرق الكبير في العدد بين أفراد البعثة البريطانية وفرسان قبائل دكالة المصطفين على مد البصر على جانبي الطريق، لا يبدو على أفراد البعثة أي مظهر من مظاهر التسلح، يتقدمهم السفير على جواده المميز بلونه الأبيض وهو يلقي نظرة

فاحصة على الفرسان على يمينه. ويتقدم موكب السفير ستة فرسان مغاربة بنفس الزي الذي يرتديه باقي فرسان دكالة. وعلى مقربة، وقف أحد الفرسان متقدما اثنين أخرين في رمزية على سلطته وتميزه ودلالة على لحظة الوصول.

هذه الرموز الجلية لها مغازي عميقة قد لا يتأتى فهمها دون مرجعية تاريخية لظروف الرحلة وأبعادها السياسية. ومن السذاجة القول أن المشهد الذي يعكسه رسم وودفيل لا يعدو كونه تعبيرا صادقا للواقع كما عاينه الفنان. فليس بالإمكان الجزم بتطابق الصورة مع الواقع المرئي من جهة، ثم إن عملية التمثل (representation) في الكتابة أو التشكيل تستلزم إعادة التمثل أو إعادة الإنتاج والتركيب (re-presentation) فهي خاضعة للفهم والتأويل الخاص بالفنان نفسه[14]. لذلك فإنه من المفيد بالنسبة للقارئ أو الناقد محاولة تفكيك الرموز المشكلة للنص أو اللوحة، وهي على الأقل عملية متاحة وتنطوي على قدر من الحذاقة وإعمال الحس النقدي، دونما أي ادعاء بالإحاطة بمقاصد المؤلف أو استيفاء لكل المعاني التي يمتلكها النص.

وأبرز هذه الدلالات السيميائية التي يلزم تفكيكها هو مفهوم القوة التي توحي به الأعداد الغفيرة للفرسان في أوضاعهم المتأهبة، وهو انطباع لا يلبث أن يزول بإمعان النظر في بساطة هؤلاء الفرسان بلباسهم التقليدي وأسلحتهم العتيقة. وباستحضار التقدم المستمر لدول مثل بريطانيا وفرنسا في مجال التدريب العسكري وصناعة السلاح، فإن هذا المشهد الاستعراضي يعكس ملمحا من ملامح التخلف والضعف المغربي، ويكشف حالة من الجمود التي طبعت أشكال الحياة في المغرب إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر. وبدلا من مبدإ الانضباط الصارم الذي يميز الجيوش النظامية الحديثة، يبدو على هؤلاء الفرسان تشبثهم بالتقاليد القتالية المعروفة عند أجدادهم. ولعل هذا المظهر العسكري الذي يحيل على الماضي هو ما شد انتباه السفير البريطاني. فنظرته الفاحصة يغلب عليها الفضول أكثر من التهيب. وفي سياق حديثه عن هذه اللحظة من زمن الرحلة يكتب وودفيل في سيرته الذاتية:

14 - Edward Said, *Orientalism*, p. 21.



كايتون وودفيل، "لحظة استقبالنا من طرف تشكيلة من فرسان قبيلة دكالة"

من أجمل المشاهد التي مرت علي منظر نحو ألفي من فرسان قبيلة دكالة لحظة استقبالنا. كلهم كانوا يمتطون جيادا رائعة، أغلبها سوداء اللون وسروج من كل الألوان التي يمكن تخيلها، بعضها أزرق فيروزي، بعضها برتقالي فاقع وأخرى حمراء وذهبية. كانت الحياك التي يرتديها الفرسان تطير ياردات من خلفهم. وبينما هم يحملون بنادقالفلينتوك، كانوا يعدون ويطلقون أعيرتهم مع صيحات "الله، الله، الله" وهو ما يسمونه لعب البارود. هؤلاء هم الرجال الذين حصدتهم مدافع الفرنسيين في الدار البيضاء قبل عدة سنوات[15].

وفيما تحيل إشارة وودفيل الأخيرة إلى حملة الجنرال دماند (General D'amade) على منطقة الشاوية في 1907 والتي كان من تبعاتها التسريع بفرض نظام الحماية على المغرب[16]، فإن رسوماته تنطوي على قناعة مسبقة بأن أنماطا خالصة من الحياة البدائية المحلية في طريقها إلى الزوال مع ما يعنيه ذلك من فقدان المغرب لطابعه الساحر والمثير وانصهاره في بوتقة المدنية الحديثة وهو شعور عبر عنه العديد من الكتاب والرحالة الأوروبيين الذين زاروا المغرب قبل 1912 أمثال بيير لوتي (Pierre Loti) وكانينغهام غراهام (Cunninghame Graham) وغراف سترنبرغ (Graf Sternberg).

وبالإضافة إلى استعراض القوة العسكرية ومهارة ركوب الخيل، فإن من مظاهر الإحتفاء التي استقبل بها فرسان قبيلة دكالة موكب السفير، الموسيقى كما تبرزه اللوحة الثانية المعنونة "*موسيقيو القائد*". وتعكس الصورة ثلاثة عازفين على المزمار وآخر يقوم برقصة فلكلورية، وفي الخلف وقف بضعة فرسان على جيادهم يتقدمهم القائد دون سلاح. ومع أن هذا المشهد على خلاف سابقه خال من أي حضور للوفد

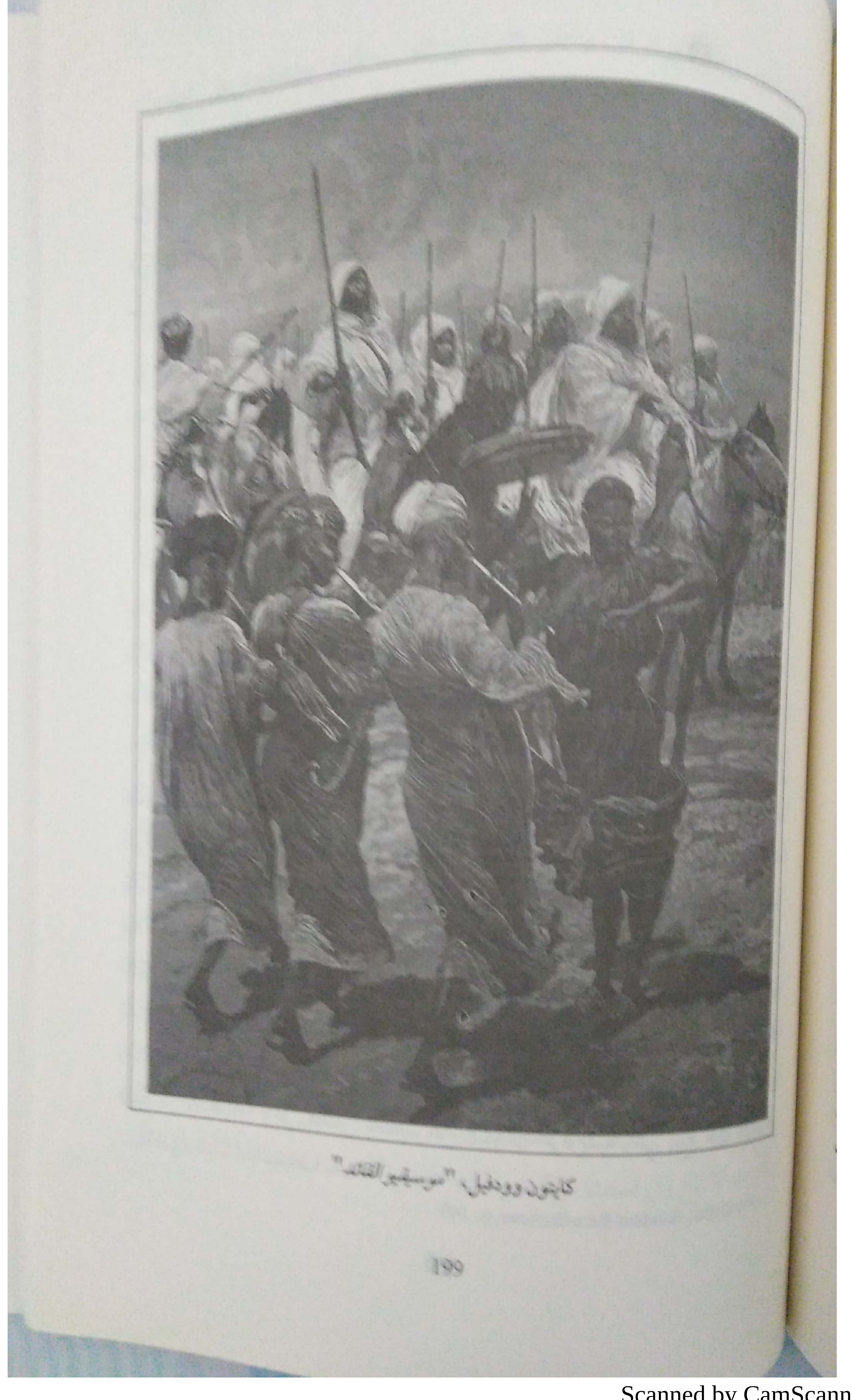
15 - Woodville, *Random Recollections*, pp. 156-57

16 - Reginald Rankin, *In Morocco with General D'amade*, (London: Longmans, Green and Co, 1908).

البريطاني، فإنه يستشف من هيأة الفرسان والنظرات المرتسمة على محياهم، ومن أداء الفرقة الموسيقية تواجد الموكب الديبلوماسي في الجهة المقابلة.

وفضلا عن الأثر الغرائبي الذي قد يخلفه هذا المشهد لدى المتلقي الإنجليزي عند تأمله لهذه اللوحة، فإن مكوناتها ورموزها التعبيرية تعكس صورة واضحة لبنية السلطة التقليدية في المغرب. فمكانة القائد السياسية والعسكرية باعتباره ممثلا للسلطان تضعه في موقع الحاكم المطلق، وإن كانت مقومات السلطة عنده محدودة خصوصا فيما يتعلق بالموارد المادية والإمكانات العسكرية. وهذا التباين في الوضع السياسي الاعتباري المميز، وما يقابله من نقص على المستوى المادي ينتج عنه مظاهر المحاكاة الساخرة لمفهوم السلطة (parody of power). فمراسيم الاستقبال هذه على بساطتها تشكل أحد طقوس السلطة في المغرب وليس مجرد عرض فلكلوري عابر. وعلى غرار مهارات الفروسية وتقاليد الضيافة السخية التي يتباهى بها فرسان دكالة، فإن الأداء الموسيقي يندرج ضمن أسس السلطة القبلية المتوارثة. ويرمز إلى القوة والنفوذ. ويتجلى هذا التماهي بين الموسيقى والقوة العسكرية في المساحة التي يحتلها العازفون داخل نطاق اللوحة. فتواجدهم في المقدمة بجانب القائد وحاشيته دلالة على القيمة التي يمنحها الأداء الموسيقي في تكريس مفهومي القوة والهيبة. وبدلا من أن تحدث إحساسا بالطرب والتأثر، فإن نغمات المزمار لم تنتقص من حالة الوقار التي ارتسمت على محيا الفرسان. فقبضاتهم على البنادق توحي بالشدة تماما كما تعبر تقاسيم وجوههم عن الصرامة. ويكرس هذا الانطباع أيضا هيأة القائد نفسه، حيث أن حركة يده اليمنى تعبر عن الترحيب بضيوفه الأجانب على الجانب الآخر كما تعكس الإحساس بالسلطة.

ينطوي هذا المشهد الإحتفائي الذي امتزج فيه الإيقاع الموسيقي بالعرض العسكري، على ملامح كثيرة من السخرية، استطاع وودفيل صياغتها بحس الفنان المرهف وإسقطات الرحالة المتعصب لثقافته. فكلتا الصورتين تعكسان نموذج البلد المنغلق على نفسه، المرتهن بتقاليد وعادات عتيقة تذكر القارئ الإنجليزي بشخوص وأحداث ألف ليلة وليلة، تتقاطع فيها قيم البطولة والشرف بأوضاع التخلف والضعف.



كايتون وودفيل، "موسيقيو القتال"

استغرقت زيارة السفير البريطاني وليام غرين بمراكش حوالي ثلاثة أسابيع أقام خلالها رفقة الوفد بقصر المامونية الشهير. وحظي باستقبال رسمي من طرف السلطان مولاي الحسن يوم 20 أبريل. وقد ترك هذا الحدث ذكرى لدى وودفيل أرخها في مذكراته بالعبارات التالية:

كان مشهد حفل الاستقبال في القصر من قبل السلطان رائعا. فقد استقبلنا في الصباح في ساحة أمام القصر. واصطف الجنود على الجوانب الأربعة، ووصل السلطان على ظهر جواد أسود تحت المظلة الشريفة. على كلا الجانبين كان مرافقوه يمشون مرتدين ملابس طويلة يبعدون الذباب. كنا جميعا نرتدي اللباس العسكري الكامل أو الزي الدبلوماسي. قدمنا السير وليام غرين جميعا حسب النظام، وعندما جاء دوري وقيل للسلطان أني ضابط في الهيأة الملكية للمهندسين، صاح السلطان: "آه، فهمت هو من ينجز خريطة عن بلادي". بعد الظهيرة، عدنا مرة أخرى إلى القصر لنقدم لجلالته الهدايا المختلفة التي أحضرناها معنا[17].

يجد القارئ في معظم كتب الرحالة التي تعرضت لمشهد استقبال السلاطين المغاربة للسفراء والمبعوثين الأجانب، وصفا دقيقا للطقوس والأزياء وسردا مستفيضا للوقائع والطرائف التي رافقت الاستقبال. وبالنسبة لوودفيل، فقد شكل هذا اللقاء بالسلطان الحسن الأول حدثا استثنائيا، ولحظة بالغة الأهمية في مساره الشخصي الحافل بالأسفار والمغامرات. فشخصية وودفيل، كما تبرزها مذكراته، متأثرة غاية التأثر بروح الثقافة الإنجليزية الفيكتورية الموشومة بالحس الذكوري والأنفة الاستعمارية. ولقاء السلطان المغربي هو بمثابة نيشان أخر ينضاف إلى خزانة نياشينه العديدة ومصدر فخر وتباه بين رفقائه. ذلك أن السفر إلى المغرب ومقابلة سلطانه لم يكن متاحا إلا لزمرة قليلة من السفراء. وعلى عكس العديد من البلدان الإفريقية التي بلغ فيها التغلغل

17 - Woodville, *Random Recollections*, p. 169

الإستعماري درجة كبيرة، فإن مناطق كثيرة من المغرب ظلت مستعصية على الفضول الأوروبي وعلى الرغبة الجامحة لساساتها لجعلها تحت السيطرة. ومن منظور وودفيل، فقد مثل استمرار هذه التقاليد والطقوس نوعا من التحدي والعناد اللذان يثيران مزيجا من الإعجاب والشفقة. ويكرس هذا الانطباع التباين الكبير بين مظاهر الترف والبذخ التي تميز حياة السلطان وحاشيته وظروف العيش البدائية للسكان في القرى كما في الحواضر. كما يتجلى في الموقع الذي يتبوأه السلطان، باعتباره حاكما مطلقا له شرعية سياسية ودينية تدين له الرعية بالولاء التام، ويخضع له القاصي والداني دونما أي حق في المسائلة أو الإعتراض. فشخص السلطان له من صفات القدسية ما يجعل أحكامه منزهة عن كل خطإ، وهو مركز القرارات لا يحق لأحد منازعته أو حتى مشاركته في السلطة دون إذنه ورضاه. وهو من فرط علو قدره وسمو مكانته لا يبرز لرعيته إلا في أوقات معلومة، يكاد يحجبه عن الناظرين حشد من الحراس والخدام والعبيد والأتباع.

وقد استطاع وودفيل رصد هذه المعالم السلطوية من خلال لوحته حول استقبال السلطان للسفير وليام غرين. فالمتأمل في تفاصيل اللوحة لن يفوته موقع السلطان المركزي ولا هيأته المتميزة عن كل ما يحيط به. فعلى يمينه وشماله ومن خلفه وقف العشرات من الخدم والعبيد في لباسهم الأبيض التقليدي، منهم من يقود الجياد، ومنهم من يحمل الأعلام والمراوح لطرد الذباب، ومنهم من يحمل المظلة لحماية السلطان من لهيب الشمس أو قطرات المطر، وللزيادة في تعظيم شأنه. ويتكرس هذا المقام الاعتباري المميز للسلطان في الصورة من خلال امتطائه لصهوة جواده الأسود دون الآخرين. فحتى السفير الذي يمثل دولة عظمى بحجم بريطانيا وقف في احترام يحيي السلطان تحية الملوك، رافعا قبعته إلى الأعلى بينما رفع بعض مرافقيه أيديهم بالتحية العسكرية وعيونهم جميعا مثبتة في اتجاه السلطان. وفي الحين الذي يوحي لباس السفير ورفقائه وحركاتهم بالانضباط والحرفية، يثير مشهد السلطان وسط جموع من خدامه وأتباعه، الفوضى وغياب الانسجام. ويتجلى عدم التناسق والانضباط في حركات ونظرات الأتباع وفي تشتت مواقعهم وازدحامهم الشديد. ويقوي هذا الانطباع منظر



كايتون وودفيل، "استقبال السلطان للسفير وليام غرين"

الجياد على يمين السلطان ويساره، وهي في حالة من الاهتياج دون أن يكون لوجودها فائدة جلية. أما الفضاء الخلفي لساحة الاستقبال، فيعكس جانبا من القصر حيث يقيم السلطان وهو بناء منخفض الارتفاع، شُيد على طرفيه مسجدان وفق المعمار المغربي، وهما يرسخان قوة وعمق البعد الديني في حياة السلطان، كما يذكران بالشرعية الدينية التي يمتلكها كأمير للمؤمنين وبتلازم السلطة الدينية والروحية لديه.

لهذه اللوحة إذن إيحاءات قوية تتمثل في غرابة اللقاء (encounter) الذي يجمع بين السلطان والسفير؛ لقاء نجد أصداءه وتمثلاته المتعددة تتكرر كثيرا في كتابات الرحالة الغربيين، تعكس الهوة العميقة بين الحضارة الأوروبية بكل ما تمثله من قوة وحيوية وتطور، وبين العالم الشرقي المنغلق على نفسه والمنغمس في تقاليده. إنه لقاء يحيل على مفارقة تاريخية (anachronistic moment) يتقاطع فيها الماضي والحاضر أو بالأحرى يستدعى فيها الماضي بحمولاته الثقافية والعاطفية ليشكل امتدادا معقدا للحاضر. لقد نجح وودفيل في تجسيد هذا التقاطع التاريخي من خلال موقع ودلالة كل من الشخصيتين في اللوحة. فمن خلال الحيز الصغير الذي خصصه للوفد البريطاني على يمين اللوحة، أمكنه فسح المجال لرسم مشهد الاستقبال السلطاني ورصد أدق تفاصيله وخلفياته. فالامتداد البشري والمعماري الذي يهيمن على اللوحة، وكثافة الرموز الدالة على خصوصية العالم المغربي من هندام وطقوس وقيم، تبعث في المشاهد إحساسا ملتبسا بالسخرية وبالانبهار. ويعكس المشهد استمرار بنية الدولة المخزنية المغربية بملامحها السلطوية في زمن اتسم بضعف وانهيار نظم الحكم الشرقية المؤسسة على مركزية وقداسة الفرد الحاكم.

وينطوي هذا التحجيم المتعمد لحضور الوفد البريطاني داخل اللوحة، على رغبة في إبراز خصوصية الفضاء المغربي الذي مازال يحكمه منطق تاريخي خاص، وتتحكم فيه شروط ثقافية محلية لا تتماشى مع مفاهيم وقواعد المدنية الأوروبية وديناميتها الاجتماعية والاقتصادية المتجددة. وبهذا المعنى تمثل اللوحة دعوة لتأمل نموذج من الحياة موغل في القدم، وأسلوب في الحكم يمثل نقيضا لأسس الحكم الليبرالي. إن الحيز الكبير الذي أفرده وودفيل للسلطان وحاشيته في مساحة اللوحة، ومظاهر الاحترام

والتوقير البادية على محيا وحركات الوفد البريطاني تعكسان أيضا نوعا من السخرية، لكون هذه التقاليد العريقة لا تقيم اعتبارا لرمزية السفير البريطاني باعتباره ممثلا رسميا لدولة عظمى.

## التوق إلى الماضي

لاشك أن غرابة هذا الموقف مع ما يعنيه من تقليل من شأن السفراء الأجانب، لم يكن أمرا سهل التقبل. فبالإضافة إلى ما رسمته أنامل وودفيل، يتذكر وولتر هاريس هذا اللقاء بعد سنوات عديدة، وهو الذي كان أكثر الكتاب الإنجليز معرفة بأوضاع المغرب قبيل الاحتلال الفرنسي، حيث يصرح:

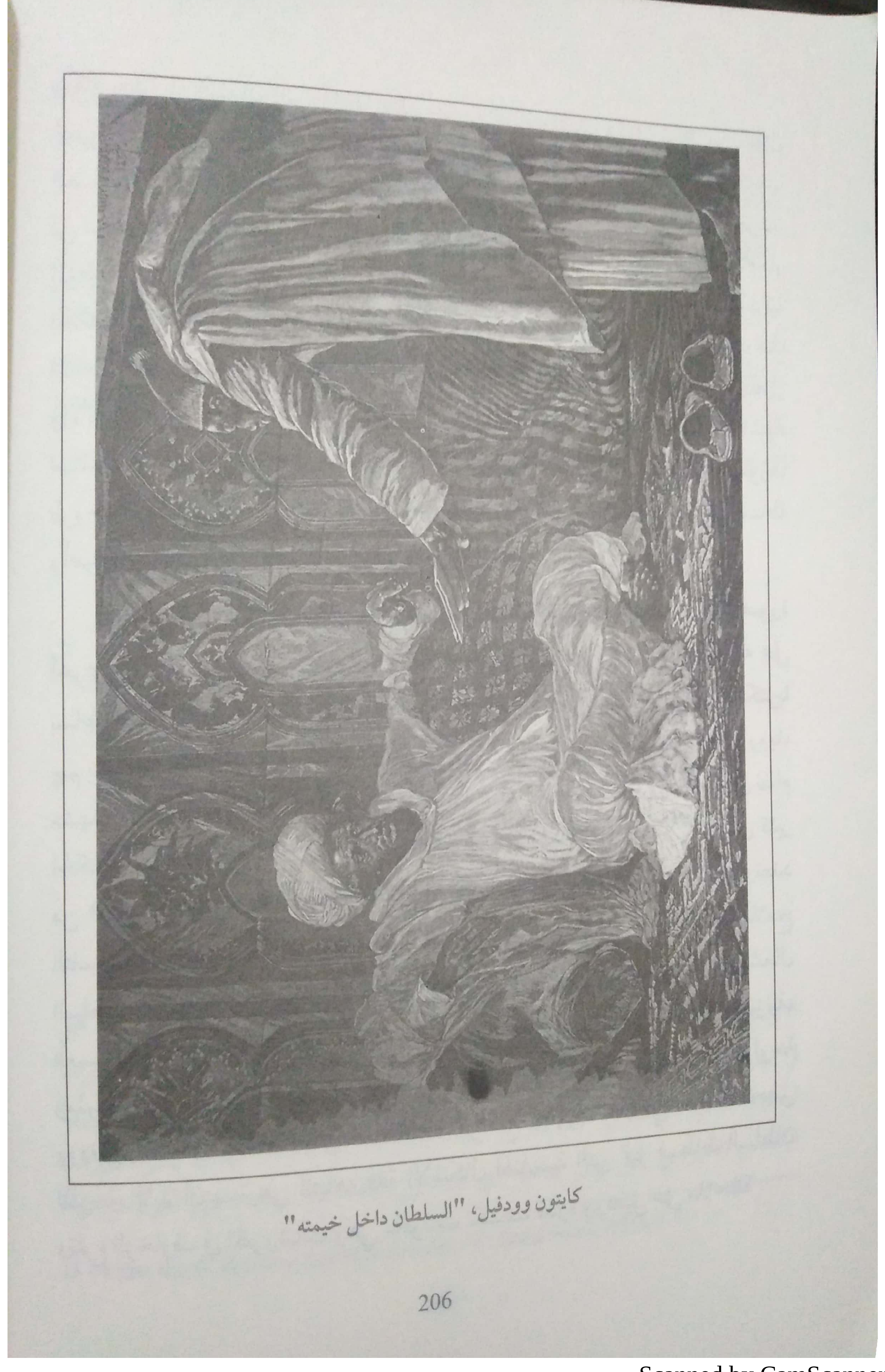
> شكل استقبال المبعوثين الأجانب من قبل السلطان عرضا رائعا. بعد سنوات قليلة جدا تم تغيير الإجراءات كلها، ولم يعد ممثلو حكومات أوروبا يستقبلون مثل رعايا يحملون واجب الجزية. ولكن طالما استمرت تلك الطقوس القديمة، فلم يكن هناك شك بشأن روعة الحفل. ربما كان ذلك الحفل فيه انتقاص لكرامة ممثلي القوى العظمى في أوروبا، وهو بلا شك كذلك، حيث كانوا يقفون تحت الشمس حاسري الرؤوس، في حين أن السلطان يظل على ظهر جواده تحت مظلة الشمس القرمزية. لكن مهما يكن من أمر لا يمكن لأحد أن يجادل في روعة المشهد أو مهابته المشرقية[18].

يشكل هذا التصور المفعم بالحنين إلى الماضي (nostalgia) إلى لحظة ما قبل الاستعمار، أحد الأنساق المتكررة في الخطاب الرحلي الأوروبي حول المغرب، خصوصا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين، حيث أصبحت معالم المدنية الأوروبية الحديثة تنتشر بسرعة في الحواضر المغربية خصوصا الساحلية منها. لم تكن آثار هذا التغلغل الأوروبي المتواصل خافية على وودفيل، فقد كان شاهدا على تحولات مثلة

18 - Walter Harris, *Morocco That Was* (London: W. Blackwood, 1921), p. 4.

وأكثر حدة في البلدان التي زارها مثل مصر وألبانيا والهند. وكان يدرك من خلال تجاربه ومعرفته بالسياسات الإستعمارية، أن دولة تقليدية وضعيفة من حيث إمكاناتها العسكرية والاقتصادية وحساسية موقعها الاستراتيجي بالنسبة لأوروبا مثل المغرب، لن تستمر طويلا في مقاومة الاجتياح الأوروبي الشرس. ويمكن القول أن أحد الأفكار المؤطرة لرسومات وودفيل هي إصراره على توثيق ملامح الحياة والعمران المغربية الخالصة قبل انقراضها وفقدان الأصالة والعمق اللذان يميزانها. ومن تجليات هذا المسعى التوثيقي عند وودفيل، تركيزه على الأشكال الهندسية والزخرفية في المعمار والأثاث المغربي، وفي مكونات الهندام وأبعاده الاجتماعية والجمالية. وكما بدا مشهد استقبال الوفد من طرف السلطان حافلا بمدلولات السلطة التقليدية ورموزها الروحية، فإن لوحاته الأخرى تقدم صورا مماثلة قوية من حيث الإيحاء عن بساطة وأصالة الطقوس المخزنية وتجذرها في الثقافة المغربية.

يطالع المشاهد في لوحة السلطان الجالس داخل خيمته الفسيحة المزركشة صورة أخرى من الفضاء المغربي المطبوع بالفرادة والتميز. فقد تربع السلطان في مجلسه على بساط تحيط به الوسائد، بينما وقف أحد الخدم منحنيا يحمل على كفه اليسرى مكتوبا يهم بتسليمه للسلطان. إنه مشهد لايشبه في شيء بنية السلطة وموقع الحاكم في أوروبا، مشهد يحيلنا على بساطة هذا المجتمع وخلوه من تلك الهرمية المعقدة والمتشابكة في نظام الحكم والسياسة. كما يفيد بأن مركزية الحاكم في حلقات الحكم جلية لا تحتاج إلى كثير من الدواوين والوسطاء، وأن أحكام السلطان ثابتة لا تحتمل كثرة الآراء وتعدد التفسيرات. رغم انحناءة الخادم التي تنم عن الخضوع التام، لا يبدو من ملامح السلطان أي مظهر من مظاهر الآنفة أو العجرفة، بل توحي تقاسيم وجهه بالانشغال العميق. تعكس هذه اللوحة طقسا مألوفا في حينه من طقوس السلطة المخزنية، وملمحا مهما من حياة السلطان العامة. وإذا كان الانطباع العام الذي تمنحه لوحة وودفيل يتمثل في بساطة مجلس السلطان و تواضع مظهره الخارجي، فإن المتفحص للوحة، لابد أن يسترعي انتباهه دقة الأشكال الهندسية التي تميز فسطاط السلطان وتنوع الزخارف في المفروشات وهي مكونات تكشف قدرة وودفيل على ملاحظة



كايتون وودفيل، "السلطان داخل خيمته"

التفاصيل المتناهية الصغر، كما تشير إلى وجود حس الإبداع والجمال لدى المغاربة قد لا يكون جليا لأول وهلة.

نجد هذا الافتتان الكبير بخصوصية وجمالية المعمار والأثاث المغربي في يوميات وودفيل أيضا. فقد قدم وصفا دقيقا لمحل إقامته بقصر المامونية بمراكش:

كانت جميع الجدران مغطاة بالبلاط الجميل على علو يصل إلى سبعة أقدام، أما الأعمدة المحيطة بالفناء المربع الشكل فقد صممت بطريقة رائعة تنم عن ذوق راق تذكرني ببهو السباع في قصر الحمراء بغرناطة. كانت الغرف المطلة على هذا الفناء كبيرة وجميلة ومنخفضة الحرارة. كانت الجدران مغطاة بنماذج مغربية خالصة من الزليج على شكل مربعات ونجوم ومثلثات وأوتاد، مصبوغة بألوان في غاية التناغم. بينما تمت تغطية الجزء الأرضي بزليج له تصاميم رائعة، وفرشت المجالس والأرض بأفضل أنواع السجاد المغربي الناعم[19].

لا شك أن هذه الانطباعات القوية التي ترسخت في ذاكرة وودفيل مثلت في حينها جزءاً من المعرفة الجديدة المرتكزة على المعاينة الميدانية والمقارنة مع نماذج وأنماط مختلفة من الحياة. في كثير من الأحيان يتم التقليل من أهمية التأثير الخفي الذي تحدثه فرص الاحتكاك والاختلاط لدى الرحالة الأوروبي بالمجتمعات الأجنبية والأقل مدنية. ورغم أن الرحالة عادة ما يكون أكثر وعيا بهويته الأصلية وأحيانا أكثر تعصبا لثقافته وجذوره بالمقارنة مع مواطنيه في البلد الأم، إلا أنه وبالمقياس نفسه، وعبر تجربته الشخصية، يصبح أكثر تأثرا وانفتاحا واستيعابا للآخر. يقدم وودفيل الدليل على هذه المقولة في كثير من اللوحات. فعلى غرار لوحة السلطان المتربع في مجلسه، تعكس لوحة الوليمة مشهدا آخر من طبيعة المجتمع المغربي يتعلق بالسخاء والكرم الموجه للضيوف. فكلما علت منزلة المضيف كلما زاد سخاءه وعطاءه. ويتعلق الأمر كذلك بمكانة الضيف، إذ إن من ملامح التقدير والاحترام للضيف، تقديم أفخر أنواع الطعام وبكميات تزيد عن الحاجة. لقد تركت طقوس الضيافة والكرم صورة قوية عند

19 - Woodville, *Random Recollections*, p. 161.

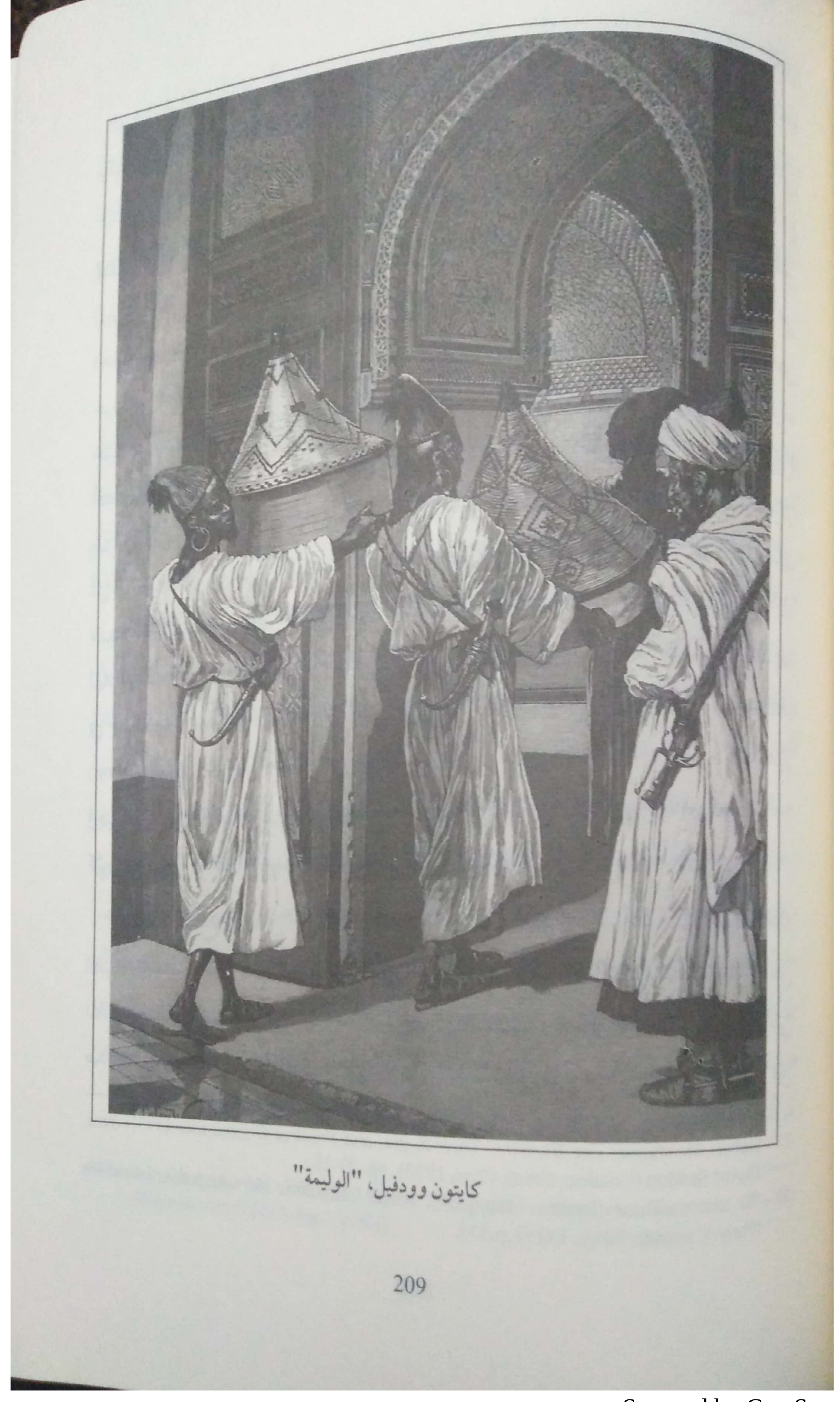
وودفيل وثقها من خلال لوحته ومذكراته. ففي معرض وصفه للسلطان، يكتب وودفيل عن حفل العشاء المقيم على شرف السفير ومرافقيه:

> دعوة السلطان للعشاء تعني سبع مائة طبق، وعندما جلسنا قدمت إلينا سلسلة لا تنتهي من أنواع الطعام. كانت الأطباق عبارة عن صحون كبيرة من الخشب تصل إلى حوالي ثلاثين بوصة مغطاة بغطاء من القش المزركش. كانت بعض الأطباق لذيذة، ولكن أفضلها كانت تلك المطبوخة مع زيت أرغان القيم والنادر، وهو زيت أخضر داكن له نكهة اللوز القوية[20].

في إحدى لوحاته، يصور وودفيل معالم هذه الوليمة السلطانية بشكل قوي يثير الإعجاب. إذ يمكن قراءة تفاصيل اللوحة ليس باعتبارها صورة جامدة، بل نصا غنيا بالمعاني والرموز يكرس قيمة الاختلاف والتفرد التي تميز هذا البلد عن أوروبا. وتقدم اللوحة مشهد ثلاثة من الخدم يحملون صحون الطعام من أجل تقديمها للضيوف، بينما وقف أحد الحراس بكامل لباسه الرسمي على مدخل القصر يراقب حركاتهم. وتطغى على اللوحة حركية ملفتة تتجلى في تعاقب الصحون وقصر المسافة بين الخدم الحاملين الطعام. ويبرز وودفيل هذا المظهر القوي للسخاء السلطاني المتمثل في وفرة الأكل من خلال شكل أحد الخدم في وسط اللوحة، وهو يحاول التحكم في صحنه الثقيل. وتنم قبضة يده اليمنى وحركة رأسه المتشنجة عن حمل ثقيل، وينطبق الأمر كذلك وإن بدرجة أقل حدة على الخادم الذي يليه. ويتميز الخدم أيضا في شكلهم من خلال بشرتهم السوداء ولباسهم وقلنسواتهم وحلقات الأذن الكبيرة.

وبالإضافة إلى وفرة الطعام، تمثل الزخارف المنقوشة على أغطية الصحون امتدادا طبيعيا لمسحة الجمال الذي تزين الفضاء الخارجي من نقوش ورسوم على الأبواب والجدران والأقواس. ويزيد من سحر هذا العالم المتسم بالفخامة والترف، هالة من التستر والإخفاء التي استطاع وودفيل إضفاءها على اللوحة من خلال أغطية الصحون المطبقة وشكل الأقواس التي لا تكشف شيئا عن الأجواء الخلفية. لا تستطيع العين

20 - Woodville, *Random Recollections*, pp. 168-169.



كايتون وودفيل، "الوليمة"

اختراق الحاجز السميك من السرية والتكتم اللذين غلف بهما وودفيل المكان وتبقى أسيرة العتبة الخارجية للقصر.

تشكل هذه المزاوجة بين الكشف الواضح لبساطة بنية السلطة التقليدية التي تمثلها لوحة السلطان المتربع في خيمته، والافتتان الكبير بالعمق الحضاري للمجتمع المغربي الذي يتجلى في طبيعة المعمار والأكل واللباس، إحدى المفارقات المتكررة في تمثل الحالة المغربية لدى الرحالة الأوروبي قبيل الاستعمار الفرنسي. لا يشد وودفيل عن جيله من الكتاب والرحالة الأوروبيين في الاعتقاد بأن المغرب يشكل ظاهرة فريدة، من حيث تماسك واستمرار مكوناته الثقافية وبنياته الاجتماعية بهرميتها وقيمها الثابتة. وقد أفصح المستشرق الفرنسي، روبرت مونتاني (Robert Montagne) فيما بعدعن هذه الفكرة بقوله "لا يمكن للمرء أن يقاوم شعور الاندهاش، حين يرى في مدن المغرب استمرار أنماط الحياة التي تعود إلى العصور الوسطى. من بين كل حواضر الإسلام لا تكاد تجد مدينة حافظت على مظهرها التقليدي اليوم مثلما حافظت مدن أقصى بلاد المغرب"[21]. لقد تحدث كثيرون عن هذا الإحساس الغريب الذي يساور الرحالة حالما يضع أقدامه في مدينة بمثل عراقة وأصالة مراكش. في سنة 1919 كتب أندري شفريون (André Chevrillon) في معرض حديثة عن مراكش وعن زغاريد النساء أثناء الليل، بأنها تفرز إحساسا لدى الزائر بالأزمنة الإثنية السحيقة[22] التي تنتمي إليها. وهو تعبير تم اقتباسه كثيرا للاستدلال على الأثر الغامض الذي يحدث في بداية كل لقاء بهذا المجتمع.

لقد استطاع وودفيل من خلال هذه اللوحات وأخرى، استكشاف وصياغة هذه القيمة الثقافية التي تميز الفضاء المغربي عن غيره. وقد اعتمد في ذلك على حس الملاحظة القوي لديه وعلى فضوله الشديد في استقصاء معاني وأبعاد الظواهر التي صادفها في رحلته. ومن الملفت للنظر أن لوحاته لا تعبر عن منحى قار ومتجانس من

---

21 - Robert Montagne, *The Berbers: Their Social and Political Organization* (1931) trans. David Seddon (London: Frank Cass, 1973), pp. 22-23.

22 - "Le sentiment des distances ethniques", André Chevrillon, *Marrakech dans les palmes* (Paris: Calmann-Lévy, 1919), p.113.

الأفكار، بقدر ما تعكس نسقا مركبا من المواقف التي يتداخل فيها الانبهار بالسخرية. فتمثلاته الفنية هي إفراز مباشر للحظة اللقاء بمجال جديد في غاية الغرابة والاختلاف، يتلمس فيها المتأمل ملامح الافتتان والإعجاب، كما يلحظ فيها نظرة الاستعلاء والاستخفاف. إنه لقاء متجدد ومفتوح لم يسع وودفيل إلا أن ينقل بعض معالمه المثيرة للجمهور الإنجليزي ويقاسمه التجربة التي عاشها.

خاتمة:

ضمت رسومات وودفيل الأخرى مشاهد تمثل فضاءات مراكش مثل ساحة جامع الفنا وأزقتها الضيقة، وكذا تشكيلة من الجنود المغاربة في تمرين عسكري تحت إمرة القائد ماكلين. وهي لوحات جاءت نتيجة لأسبوعين متواصلين من المعاينة والملاحظة الدقيقة لمظاهر الحياة في هذه المدينة. في الأسبوع الثالث والأخير من إقامة الوفد الديبلوماسي، قام وودفيل رفقة ثلاثة من رفاقه برحلة صيد إلى جبال الأطلس، حيث بلغوا قرية أمزميز التي تبعد بخمسين كيلومترا عن مراكش. وقد فتن وودفيل بالمناظر الخلابة التي أوحت له بسويسرا رغم أن السكان في رأيه كانوا أشبه بسكان أفغانستان.

قدم وودفيل في مذكراته كذلك أوصافا للمناطق التي قام الوفد بزيارتها خلال رحلة العودة إلى طنجة، ومنها منطقة سوس التي تركت لديه انطباعا قويا بروعتها وخصوبة أرضها وكثرة الأشجار فيها. وقد سلك الوفد مسار الطريق الساحلي عبر مدن الصويرة، وآسفي، والدار البيضاء، والرباط، والمهدية، والعرائش، وأصيلة ثم طنجة. ورغم مرور سنوات عديدة على رحلته، فقد ظلت ذكرياته عن المدن التي مر عبرها راسخة في ذهنه، مليئة بالحنين والإثارة يتحدث عنها لمحاوريه، يروي لهم عن غرائب ما شاهده في بلاد المغرب قبل أن تضمها فرنسا إلى مستعمراتها[23].

23 - Roy Compton, "A Chat with Caton Woodville", *Idler: An Illustrated Monthly Magazine*, 10:6 (1897: Jan.), p.758.

وكما عاش وودفيل حياة مثيرة، فقد أبى إلا أن يفارقها بطريقة مثيرة، حيث قام بإطلاق الرصاص على نفسه في مرسمه الخاص بمدينة لندن بعد أن أعياه المرض وعجز عن مواصلة أعماله الفنية[24].

24 - "Obituary: Mr CatonWoodville", *Times*, Thursday 18 August, 1897, p.12.

الكتاب : الرحلة وصورة الآخر قراءات في نصوص الرحالة الأوروبيين حول المغرب
المؤلف : تأليف جماعي وتقديم كريم بجيت
لوحة الغلاف : "مراكش" كايتون وودفيل
تصميم فني : يوسف افضيلات
الناشر : منشورات دار الأمان
العنوان : 4، زنقة المامونية - الرباط
الهاتف: 76 32 72 37 05 - الفاكس: 55 00 20 37 05
البريد الإلكتروني: E-mail:libdarelamane@yahoo.fr
الإيداع القانوني : 2013MO0855
ردمك : 978-9954-561-46-1
الطـبع : مطبعة الأمنية - الرباط
الهاتف: 05.37.72.48.39 - الفاكس: 05.37.20.04.27
البريد الإلكتروني: E-mail: impoumnia@yahoo.fr